الفصل الثامن

النابغة الذبيانى

١

قبيلته

النابغة من قبيلة ذُبْيَان الغَطفانية القيسية، إذ تنتسب إلى بَغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قَيْس عَيْلان ، وإلى بغيض تنتسب أيضاً قبيلة عَبْس. ومن أهم عشائر ذبيان وبطونها بنو فَزارة وبنو مرَّة وبنو سعد ، ومن فزارة بنو مازن ، وبنو بدر وفيهم كانت رياسة فزارة فى الجاهلية ، ومنهم حذيفة بن بدر وأخوه حَمل . ومن بنى مرة بنو غيظ وبنو سَهم وبنو صِرْمة وبنو خُصَيْلة وبنو نُشْبة وبنو يربوع عشيرة النابغة، وسيدا بنى مرة غير مدافَعين هَرِم بن سنان والحارث بن عوف ممدوحا زهير بن أبى سُلْمى .

وتظهر قبيلة ذبيان وعشائرها على مسرح التاريخ الجاهلى مع حرب داحس والغَبْراء التى نشبت بينها وبين أختها عبس واستمرت فيما يقول الرواة نحو أربعين عاماً امتدت فيما يُظن من سنة ٥٦٨ إلى سنة ٦٠٨ للميلاد . ومرَّ بنا أن السبب فى نشوبها سباق داحس والغبراء ، وكان داحس جواداً لقيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكانت الغبراء فرساً لحَمل بن بدر سيد بنى فزارة . وسبق داحس إلا أن الفزاريين أقاموا له كميناً فى نهاية الشوط نفَّره عن غايته ، فسبقته الغبراء . واستشاط قيس غضباً ، وطلب الرهان ، وبعث حَمل ابنه يطلب منه الرهان المضروب — وقتله قيس . فاستعرت نيران الحرب بين القبيلتين ، واشترك فيها أحلافهما ، فكان مع عبس بنو عامر ، وكان مع ذبيان بنو تميم وبنو أسد ، ودارت سلسلة معارك طاحنة ، من أهمها يوم المريقب وكان لعبس على ذبيان ، وفيه قتَل عنترة ضمضما أبا حُصَين المرى والحارث بن بدر ، وممن قُتل فيه أيضاً عوف بن بَدْر ، ويوم ذى حسى وكان لذبيان على عبس ، ويوم جَفْر الهباءة وكان لعبس

على ذبيان وفيه قُتل حذيفة وحمل ابنا بدر، ورثاهما قيس خصمهما رثاء حارًّا ، يقول فى بعضه[١] :

شفيتُ النفسَ من حَمَلِ بن بَدْر ... وسيفى من حُذَيْفَةَ قد شفانى
شفيتُ بقتلهم لغليل صَـدْرى ... ولكنى قطعتُ بهم بَنانى

وثأرتْ ذبيان لنفسها فى معركة الجراجر أو ذات الجراجر . ثم تجمعت ذبيان وأحلافها من تميم وأسد كما تجمعت عبس وعامر ، واشتبكت الفئتان فى يوم شِعْب جبلة ، وفيه دارت الدوائر على ذبيان وأحلافها ، إذ أثخنت فيهم عبس وعامر القتل فقُتل لَقيط بن زُرارة التميمى وأسر أخوه حاجب. ولم تلبث ذبيان أن أوقعت بعبس وعامر فى يوم شعواء وقعة منكرة . ورأت عبس أن تقف هذه الحروب التى أتت على الأبطال والرجال ، فأرسلتْ وفداً إلى ذبيان يطلب الصلح ، ولقى الوفد سيدى بنى مرة : الحارث بن عَوْف وهَرِم بن سنان ، فحملا قومهما على الصلح ، وتحمَّلا ديات القتلى ، ويقال إنها بلغت ثلاثة آلاف بعير . وبذلك وضعت هذه الحروب أوزارها ، ويُظَن أنه لم يُكْتَبْ للنابغة أن يرى انفضاضها ، فقد توفِّى قبل ذلك بقليل .

وبينما كانت ذبيان تدير رحى هذه الحروب كانت تدير رحى حروب أخرى مع الغساسنة ، وكان يؤازرها أحلافها من بنى أسد ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن القبيلتين جميعاً كانتا تدينان بالولاء للمناذرة خصوم الغساسنة ، فهم يشرعون سيوفهم ويشهرونها فى وجوه خصومهم ، وكانوا آونة ينتصرون عليهم وآونة ينهزمون وتمتلىء أيدى الغساسنة بأسراهم ، مما اضطر النابغة على نحو ما سنرى بعد قليل أن ينزل بالغساسنة ويستعطفهم حتى يردوا إلى هؤلاء الأسرى حريتهم .

وتدل دلائل مختلفة على أن عشائر ذبيان لم تكن دائماً فى رفاق ووئام ، فهى تتجمع لحرب عبس والغساسنة ، ثم تعود فتتناحر داخليًّا ، على نحو ما تصور ذلك أشعار بشَامة بن الغدير والحصين بن الحُمام المرى وزَبَّان بن سيَّار الفزارى والنابغة ، إذ يشيرون إلى بعض المنازعات بين تلك العشائر ، وقد يشيرون إلى معارك وقعت بينها ، فمن ذلك قول الحُصَين بن الحُمام عقب معركة بين عشيرته بنى سهم وبين بنى صِرْمة ، وفيها انتصر الأولون[٢] :

---

(١) عيون الأخبار ٣/٨٨ والمرزوقى على الحماسة ١/٢٠٣ وسمط اللآلى للبكرى ٣٠٥ .

(٢) المفضليات (طبع دار المعارف) ص٦٥ والهام : الرءوس .

صَبرنا وكان الصبرُ فينا سجيَّةً بأسيافنا يقْطَعْنَ كفًّا ومِعْصَما
يُفَلِّقْنَ هاماً من رجالٍ أعزَّةٍ علينا وهم كانوا أعقَّ وأظلما

ونجد يزيد بن سنان أخى هرم بن سنان يطلق زوجه ، وكانت ابنة النابغة ، ويثير على عشيرتها يربوع عشيرتى خصيلة ونُشْبة، عاقدًا بينهما حلفاً سمى حلف المحاش ، وما يزال يربوع حتى يجليها عن ديارها إلى ديار بنى عُذْرة، وفى ذلك يقول النابغة :

جَمِّعْ مَحَاشَك يا يزيد فإننى أعددتُ يَرْبُوعاً لكم وتميما
حَدِبَتْ علىَّ بطونُ ضِنَّةَ كلها إنْ ظالما فيهم وإن مظلوماً[1]

فلم تكن عشائر ذبيان على صفاء دائمًا ، بل كثيراً ما كانت تتحارب وتتقاتل ويعتزل بعضها بعضاً، وقد تترك عشيرة منازلها إلى منازل جيرانها من عُذْرة وغير عذرة .

وكانت ذبيان كغيرها من قبائل غطفان تعبد فى الجاهلية العُزَّى وتتخذ لها كعبة تحج إليها ، وتقدم لها النذر والقرابين ، وقد هدمها خالد بن الوليد بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم . ومعنى ذلك أن ذبيان ظلت على وثنيتها حتى دخلت فى الإسلام الحنيف .

٢

حياته

هو زياد بن معاوية بن ضِباب بن جَناب[2] بن يَرْبوع ، وأمه عاتكة بنت أنيس من بنى أشجع الذبيانيين ، فهو ذبيانى أباً وأمًّا ، وكان يكنى بأبى أمامة وأبى ثمامة[3]، وهما ابنتاه، كما كان يلقب بالنابغة، وبهذا اللقب اشتهر . واختلف الرواة فى سبب تلقيبه به ، فقيل لقوله فى بعض شعره : (فقد نبغتْ لنا منهم شئون) وقيل لأنه قال الشعر بعد أن كبرتْ سنه ومات قبل أن ينُهْتَر ويذهب عقله[4] .

---

(١) ضنة : عشيرة من عذرة .
(٢) هكذا فى ترجمته بالأغانى (طبعة دار الكتب) ٣/١١ وفى شرح التبريزى للمعلقات العشر جابر بن يربوع بدلا من جناب بن يربوع.
(٣) انظر الأغانى ٣/١١ وترجمته فى الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٠٨/١ وما بعدها .
(٤) الأغانى ٤/١١ وراجع الشعر والشعراء ١٠٨/١ وشرح المعلقات العشر للتبريزى .

ونظن ظنًّا أنه سمى بذلك لنبوغه فى شعره وتفوقه فيه ، ومن أكبر الدلالة على ذلك أننا نجد مجموعة من الشعراء المخضرمين والإسلاميين تلقَّب بنفس اللقب مثل النابغة الجعدى والنابغة الشيبانى والنابغة التغلبى ، ويميَّز هو منهم باسم النابغة الذبيانى .

ولسنا نعرف شيئاً واضحاً عن نشأته ولا عن شبابه ، وكل ما يحرص الرواة على قوله هو أنه كان من أشراف ذبيان وبيوتاتهم ، وقد يكون فى مصاهرة يزيد أخى هرم ابن سنان له وهو من أشراف ذبيان ما يقطع بذلك . وإذا كنا نجهل نشأته وشبابه فإن فى شعره وأخباره ما يصور لنا الشطر الثانى من حياته ، وهو شطر بدأه بالنزول على النعمان بن المنذر أمير الحيرة[١] ولزومه له يمدحه ويتغنى بمناقبه . ومعروف أن قبائل نجد كانت تدين بالولاء للمناذرة منذ قضوا على دولة كندة ، وكانت تدخل ذبيان فى هذا الولاء ، فطبيعى أن يقصد شاعرها النابغةُ النعمانَ بن المنذر وأن يُضْفى عليه مدائحه . وسُرَّ النعمان بوفوده عليه ، فقربه منه ونادمه ، وأجزل له فى العطايا والصلات ، حتى أصبح شاعره الفذّ ، وكان بلاطه يموج بالشعراء من أمثال أوس ابن حَجَر التميمى والمثقِّب العبدى ولبيد العامرى ولكن أحداً منهم لم يكرمه إكرام النابغة ، وقد صور ذلك فى معلقته ، إذ يقول :

الواهب المائةَ المِعْـكاءَ زيَّنها ... سَعْدَانُ تُوضِحَ فى أوبارها اللِّبَدِ[٢]

والأُدْمَ قد خُيِّسَتْ فُتْلا مرافقُها ... مشـــدودةً برِحال الحِيرة الجدُدِ[٣]

والرَّاكضاتِ ذيولَ الرَّيْطِ فانقَها ... بَرْدُ الهواجرِ كالغِزْلانِ بالجرَدِ[٤]

والخَيْلَ تَمْزَعُ غَرْباً فى أعِنَّتِهـــا ... كالطَّيْرِ تنجو من الشُّؤْبوب ذى البَرَدِ[٥]

---

(١) واضح أننا لم نعتد بما ذهب إليه بعض الرواة من أن النابغة لحق عمرو بن هند ومدحه بقصيدة مطلعها :

أتاركة تدللها قطام ... وضنا بالتحية والكلام

وأغلب الظن أنها منتحلة عليه ، وهى ليست على كل حال فى رواية الأصمعى للديوان ، وروى الشنتمرى عن أبى عبيدة أنه مدح بها عمرو بن الحارث الغسانى .

(٢) المكاء : الغلاظ القوية ، ويريد الإبل . توضح : موضع . السعدان : مراع . لبد الشعر : ما تلبد منه .

(٣) الأدم : النوق البيض . خيست : ذللت . فتلا مرافقها : كناية عن قوة خلقها ومتانتها .

(٤) الراكضات : الساحبات . الريط : ثوب طويل . فانقها : نعمها . الجرد : موضع .

(٥) تمزع غرباً : تسح سحا شديداً . الشؤبوب : السحاب أو دفعات مطره .

فقد كان يعطيه المائة من الإبل الموثقة الخلق المذللة كما كان يعطيه القطيع من الخيل ، غير الجوارى المنعمات . على أن حادثاً حدث اضطره إلى مغادرة بلاط المناذرة والتوجه توًّا إلى بلاط الغساسنة ، إذ أوقعوا بذبيان وأحلافهم من بنى أسد وقعة منكرة على أثر تعديهم على وادى ُأقر الخصيب ، وكانوا قد حموه ومنعوا أن ترتاده القبائل ، وارتادته ذبيان وأسد ، فنكلوا بهما تنكيلا فظيعاً ، وسبوا كثيراً منهما ومن نسائهما . فألم النابغة ألماً شديداً صوّره فى قوله :

لقد نَهيتُ بنى ذبيانَ عن أُقُرٍ ... وعن تربُّعِهِم فى كل أَصْفارِ(١)
وقلتُ يا قومِ إن اللَّيْثَ منقبضٌ ... على براثنه لوثْبــة الضارِى(٢)
لا أعرفَنْ رَبْرَباً حُورًا مدامعُها ... كأَنَّ أبكارها نِعاجُ دُوَّارِ(٣)
ينظرْنَ شَزْرًا إلى من جاء عن عُرُضٍ ... بأوجهٍ منكرات الرِّقِّ أحرارِ(٤)
يَذْرِين دَمعاً على الأشفار منحدرًا ... يأْمُلْنَ رِحْلَةَ حِصْنٍ وابن سَيَّارِ(٥)

وواضح أنه يصور نساء ذبيان وقد أسرن ، وهن يذرفن الدموع ويتلفتن يميناً وشمالا ، لعل بطلى قومهما حِصْن بن عيينة وزَبَّان بن سيار يقلمان بالجيوش ، فيخلصانهن من ذل الأسر والعار ، وفى بعض الروايات أنه كان بينهن إحدى بناته. وعرض لما صنعت جيوش الغساسنة ببنى أسد ، فقال فى قصيدة أخرى مصورًّا ما أصابهم من الجهد والبلاء :

لم يبق غيرُ طريدٍ غيرِ مُنْفَلِتٍ ... وموثَقٍ فى حِبال القِدِّ مسلوبِ(٦)
أو حُرَّة كمهاة الرَّمْل قد كُبِلتْ ... فوق المعاصم منها والعراقيب(٧)

---

(١) أقر : واد . تربعهم : إقامتهم وقت الربيع . أصفار : شهور الربيع جمع صفر .

(٢) البراثن : الأظفار . الضارى : متعود الافتراس .

(٣) الربرب : القطيع من بقر الوحش تشبه النساء به . حورا : جمع حوراء ، وهى العين الجميلة واضحة البياض والسواد . النعاج : إناث البقر . دوار : اسم صنم كن يطفن به فى الجاهلية .

(٤) النظر الشذر : النظر بمؤخر العين . عرض : جانب .

(٥) الأشفار : جمع شفر ، وهو هدب العين.

(٦) القد : شراك كانوا يشدون به الأسير .

(٧) المهاة : البقرة الوحشية . المعصم : موضع السوار .

obeikandi.com

تدعو قُعَيْناً وقد عَضّ الحديدُ بها عَضَّ الثِّقافِ على صُمِّ الأنابيب(١)

ولم يجد النابغة بدًّا من أن يسعى إلى الغساسنة وأن يمدحهم ، حتى يكفّوا عن قومه ، ويردوا الحرية إلى من سبوه منهم ، فنزل بعمرو بن الحارث الأصغر بن الحارث الأعرج بن الحارث الأكبر بن جبلة، ومدحه مدحاً رائعاً كما مدح أخاه النعمان . وأكبرا سفارته لديهما ، فعفوا عمن أسراه ، وكان جزاؤهما من النابغة مديحه الرائع لهما، وظل عندهما يبالغان فى إكرامه ويبالغ فى مديحهما، محاولا بكل ما استطاع أن لا يعودا إلى حرب قومه أو حرب أحلافهم. وقد مر بنا أن عشيرته يربوع كانت تنزل أحياناً فى بنى ضنة العذريين وعشائرها من بنى حُنّ ، فتوسع لهم فى ديارها ومراعيها ، وحدثت النعمان نفسه بغزوهم ، فتعرض له النابغة يخوّفه منعتهم ومنعة ديارهم ، ولما رأى منه إصراراً شديداً أرسل إلى عشيرته يدعوها أن تعين بنى حُنّ ، فأعانتها ومُنيت جيوش الغساسنة بالهزيمة ، وفى ذلك يقول :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريد بنى حُنٍّ ببُرْقَةِ صادرِ(٢)
تجنّبْ بنى حُنٍّ فإن لقاءهم كريهٌ وإن لم تلقَ إلا بصابرِ(٣)
عظامُ اللُّهى أولادُ عُذْرَةَ إنهم لَهاميمُ يَسْتَلْهونها بالحناجرِ(٤)
وهم منعُوا وادى القُرَى من عدوهم بجمعٍ مُبِيرٍ للعدوِّ المُكاثِرِ(٥)

وعلى هذا النحو كانت سفارته لدى الغساسنة ذات فوائد جليلة لقومه وأحلافهم ، وما زال يرعى مصالحهم عندهم حتى توفّى عمرو ثم أخوه النعمان ، فرأى أن يعود إلى النعمان بن المنذر ، وكان قد غضب عليه غضباً شديداً، إذ كان يتخذه داعية له فى قومه، وكان يرى فى نزوله بالغساسنة ما يدفع ذبيان إلى أن تخرج على ولائها له، فهذا شاعرها وشريفها النابغة يلجّ فى مديح خصومه. وكأنه يعلن بذلك ولاءه وولاء قبيلته لهم.

(١) قعين : عشيرة من أسد . الثقاف : خشبة تقوم بها الرماح . الأنابيب : كعوب الرماح .

(٢) برقة صادر : موضع .

(٣) صابر : شجاع فى الحرب .

(٤) اللهى هنا: المال . لهاميم : جمع لهموم وهو الضخم العظيم . يستلهونها : يبتلعونها ، يصفهم بعظم الحلوق وكثرة الأكل وضخم الأجسام .

(٥) مبير : مهلك .

وبذلك كان ذنب النابغة عظيما ، وقد أخذ يدفع عن نفسه فى اعتذاراته المشهورة التى قدمها إلى النعمان ، فعفا عنه ، وعاد إلى بلاطه من جديد ، وحظى برضاه ونائله الغَمْر إلا أن كسرى لم يلبث أن غضب على النعمان ، فاستدعاه سنة ٦٠٢ للميلاد ، وألقى به فى غياهب السجن حتى مات ، ويقال بل ألقى به تحت أرجل الفيلة .

وواضح أننا لم نأخذ بالروايات[١] التى رواها القدماء فى سبب مفارقة النابغة لبلاط النعمان بن المنذر ووفوده على الغساسنة ، فقد زعموا أنه إنما فارق النعمان خوفاً على حياته ، فإن بعض الشعراء الذين نفسوا عليه مكانته عنده صنعوا على لسانه شعراً هجاه به هجاء مقذعاً ، وفى بعض الروايات أنه كان لأحدهم سيف قاطع كثير الفرند والجوهر ، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذه ، واضطغن صاحبه على النابغة فوشَى به إلى النعمان وحرضه عليه . وفى رواية أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة وصفاً استقصى فيه أعضاءها ، فغار منه المنخل اليشكرى وكان يهواها ، فوسوس إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا من جرّب ، فغضب النعمان ، وعلم النابغة فهرب إلى الغساسنة . وسنرى فيما بعد أن قصيدته فى المتجردة موضوعة .

وفى الحق أن كل هذه الروايات وما تضم من أشعار مخترعة ، اخترعها الرواة ليفسروا اعتذارات النابغة التى تنبىء بأنه جنَى جناية عظيمة ، وأن هناك وشاة أوقعوا بينه وبين النعمان بن المنذر ، ولم تكن هذه الوشاية إلا وفوده على الغساسنة أعداء النعمان وما صاغه من المديح فيهم ، وقد كان يهمّ النعمان أن لا تضع الحرب أوزارها بينهم وبين ذبيان وقبائل نجد الغربية . فلم يكن ذنب النابغة عند النعمان ذنباً شخصيًّا ، وإنما كان ذنباً سياسيًّا . وقد عاد إليه يطلب الصفح والعفو ، لا لأنه بلغه أنه عليل كما تزعم بعض الروايات[٢] .

ونعتقد أن سفارته لقومه فى بلاطى المناذرة والغساسنة هى التى أقلت الإشارات فى شعره إلى حروب داحس والغبراء ، إذ لم يشترك فى وقائعها . ومع ذلك نراه فى بعض شعره يأسى لتحول عبس إلى عامر ومفارقتها لديار أبناء عمومتها من ذبيان ، يقول :

أَبلغْ بنى ذُبْيانَ أَنْ لا أَخاً لهم ... بعَبْسٍ إذا حَلُّوا الدِّماخَ فأَظْلَما[٣]

---

(١) الأغانى ١١/١٢ وما بعدها وانظر ترجمته فى الشعر والشعراء .

(٢) أغانى ١١/٢٩ .

(٣) الدماخ : جبال . أظلم : موضع . يشير بهما إلى منازل بنى عامر .

هُمُ يَردون الموتَ عند لقائهِ إذا كان وِرْد الموت لابُدَّ أكْرَما

وكأنه يحرّض قومه أن يعودوا إلى السِّلْم مع عبس مستنصرين بها ضد أعدائهم ، ففيها شجاعة وجرأة وإقدام وغَنَاء فى الحروب . وليس فى شعره أى إشارة لوعيد أو تهديد لعبس ، وكأنه كان يبقى على القربى والرحم بينه و بينها ، فهو لا يتوعدها غارة ولا يندد بالوقائع التى انتصرت فيها قبيلته . ولكن إذا كان قد ترك عبساً فقد تعرض لعامر حليفتها يهددها و يهدد سادتها وأبطالها من مثل زُرْعة بن عمرو وعامر بن الطفيل بغارات شعواء لقومهما تُسْبِى فيها الأطفال والنساء . وحاول زرعة و بعض بنى عامر أن يدفعوا ذبيان لنقض ما بينها و بين أسد من حلف وعقد حتى تُحْقَن الدماء ، وعلم النابغة بذلك وأن عُيَيْنة بن حِصْن و بعض الذبيانيين يفكرون فى الأمر، فتولى غضباً ينشد القصائد مسفها بنى عامر وعيينة وداعياً قومه إلى الوفاء بما بينهم و بين أسد من العهود والعقود ، وفى ذلك يقول قصيدته :

قالتْ بنو عامرٍ خالوا بنى أسدٍ يا بُؤْسَ للجهل ضَرَّارًا لأقوامِ(١)

يَأْبى البلاءُ فلا نبْغى بهم بدلا ولا نريد خِلاءً بعد إحكام(٢)

وتوجه إلى عيينة يعنفه تعنيفاً شديداً فى قصيدة أخرى ، يقول فى تضاعيفها :

إذا حاولتَ فى أسدٍ فجورًا فإنى لستُ منك ولستَ منى

وهو موقف يدل على نبله وحرصه على الوفاء ، و يدخل فى ذلك مدحه لبنى أسد وإشادته بشجاعتهم و بلائهم فى الحروب .

وجميع أخباره وأشعاره الصحيحة تدل على أنه كان سيداً شريفاً من سادات قومه ، فهو لا يتفتّى تفتّى امرئ القيس وطرفة وأضرابهما ، بل يتراءى سيداً وقوراً ذا خلق وشيم كريمة ، فهو لا يتدنى فى سفاهة ولا يتبذل فى مجون . وفى أشعاره بعض إشارات مسيحية ، وقد جاءه ذلك من إقامته الطويلة فى الحيرة ولدى الغساسنة وكأنه استمع إلى بعض ما يقوله الأحبار والرهبان ، ولكن لا شك فى أنه كان على دين

(١) خالوا : من المخالاة وهى نقض العهد . الخلاء : نقض العهد كالمخالاة .

(٢) البلاء : يقصد بلاءهم معهم فى الحرب .

آبائه يتعبَّد العُزَّى وغيرها من آلهتهم الوثنية ، ويختلف معهم إلى الحج بمكة ، وفى معلقته :

فلا لعمرُ الذى مسَّحْتُ كَعْبتَه   وما هُرِيقَ على الأَنْصاب من جَسدِ

فهو يقدس الدماء التى كانت تُصَبُّ على الأنصاب .

وكان فيه حكمة ، وهى مبثوثة فى شعره ، ويقول ابن حبيب إنه ممن حرَّم الخمر والأزلام فى الجاهلية[١] . وهو بذلك كله يبدو سيداً وقوراً . ويظهر أنه نال شهرة واسعة فى عصره لا عند أمراء الحيرة والغساسنة فحسب بل أيضاً فى داخل الجزيرة وبين الشعراء ، إذ كانوا يعرضون عليه فى المواسم والأسواق أشعارهم . قال صاحب الأغانى : «كان يُضْرَبُ للنابغة قُبَّة من أدَم بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء ، فتعرض عليه أشعارها . وحدث ذات مرة أن أنشده الأعشى أبو بصير ، ثم حسان بن ثابت ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد :

وإن صَخْرًا لتأْتمُّ الهداةُ بهِ   كأنه عَلَمٌ فى رأْسه نارُ[٢]

فقال : والله لولا أن أبا بصير أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخى أنت لا تحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذى هو مُدْركى   وإن خِلْتُ أن المنتأَى عنك واسعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حِبالٍ متينةٍ   تَمُدُّ بها أَيدٍ إليك نوازِعُ[٣]

فخنَس حسان لقوله[٤] » . وفى رواية أخرى أنه لما غضب حسان وقال له أنا أشعر منك ومن أبيك قال له حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَنات الغُرُّ يَلْمَعْن بالضُّحى   وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نجدةٍ دما

---

(١) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ٢٣٨ .

(٢) العلم هنا : الجبل .

(٣) خطاطيف : جمع خطاف وهو حديدة حجناء تستخرج بها الدلاء من البئر ، حجن : جمع حجناء وهى المعوجة . نوازع : جواذب . ويقصد قصائده التى يستعطفه بها .

(٤) أغانى ٦/١١ .

obeikandi.com

ولدنا بنى العَنْقاء وابنَىْ محرقٍ فأكرمْ بنا خالاً وأكرمْ بنا ابْنَمَا[1]

فقال له النابغة : أنت شاعر ولكنك أقللت أجفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك[2] . وأكبر الظن أن هذه الزيادة فى تلك الرواية من عمل بعض اللغويين الذين يذهبون إلى أن جمع المؤنث السالم ووزن أفعال فى جمع التكسير يدلان على القلة . وفى الحقيقة لم يفتخر حسان بالأبناء دون الآباء ، بل لقد افتخر بالآباء ، وإن كان عبَّر بكلمة ولدنا ، فهى مماحكة لفظية ، وما كان النابغة ليعمد إلى مثل هذه المماحكة والمغالطة . والمهم فى الخبر أنه كان يحكم بين الشعراء فمن أشاد به تألق نجمه ومن أزرى به خمل ذكره .

وقد رجع إلى قبيلته بعد موت النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢ وأمضى فيها بقية حياته ، ويظهر أنه لم يعش طويلا ، فليس فى أشعاره أى شىء يتصل بانتهاء حروب داحس والغبراء سنة ٦٠٨ ولو أنه حضر نهايتها لأشاد بموقف سيدى قبيلته : هرم بن سنان والحارث بن عوف فى حقن الدماء بما تحملا من ديات ، ومن ثَمَّ كان لا يبعد عن الصواب ما زعمه لويس شيخو من أنه توفى سنة ٦٠٤[3] .

٣

ديوانه

لعل أقدم نشرة لديوان النابغة نشرة ديرنبورج له فى المجلة الآسيوية (١٨٦٨ — ١٨٦٩) وقد استخرجها من شرح الشنتمرى للدواوين الستة ، وهى دواوين امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة بن عبدة . وسبق أن قلنا فى حديثنا عن ديوان امرئ القيس إن هذا الشرح يحتفظ برواية الأصمعى لتلك الدواوين ، وبعد أن يفرغ منها يضيف إليها بعض قصائد من رواية الكوفيين . وقد اعتمد ديرنبورج فى نشرته لديوان النابغة على مخطوطتين من شرح الشنتمرى وجدهما فى

(١) العنقاء : جد الخزرج الأول . محرق : هو الحارث بن جبلة الغسانى ، ومعروف أن الغساسنة كالخزرج من الأزد ، ولذلك يفخر بهم كما يفخر بقومه .

(٢) أغانى (طبعة دار الكتب) ٩/ ٣٤٠ والموشح للمرزبانى ص ٦٠ .

(٣) شعراء النصرانية ص ٦٤٠ .

باريس ومخطوطة ثالثة وجدها فى فينا وهى بشرح البطليوسى . وقد نشر فى سنة ١٨٩٩ ملحقاً للديوان فى المجلة الآسيوية نقله عن مخطوطة فى مجموعة شيفر وجد بها زيادات جديدة .

ونشر الديوان آلورد فى مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، سنة ١٨٧٠ واستخرج نشرته من عدة مخطوطات إلا أنه لم يكتف بما جاء عند الشنتمرى ، فقد ألحق بتلك الدواوين الستة زيادات وإضافات مما وجده مسوباً فى كتب الأدب إلى كل منهم ، وقد نُشر الديوان فى القاهرة مع هذه الدواوين ، ولكن لا بشرح الشنتمرى وإنما بشرح البطليوسى . ونشر نشرة أخرى باسم «التوضيح والبيان عن شعر نابغة بنى ذبيان » وقام على هذه النشرة مصطفى أدهم سنة ١٩١٠ . ونُشر فى بيروت مع مجموعة دواوين أخرى باسم خمسة دواوين العرب ، وهى دواوين النابغة وعروة ابن الورد والفرزدق وحاتم الطائى وعلقمة الفحل . وقد نشره لويس شيخو فى مجموعته «شعراء النصرانية» معتمداً على نشرة آلوارد . ونشره مصطفى السقا فى مجموعته «مختار الشعر الجاهلى» وهذه المجموعة كما مر بنا هى نفسها مجموعة الدواوين الستة التى عُنى بها الشنتمرى ، وإن كان الناشر لم ينقل معها شرحه ، فقد اختصره ، غير أنه احتفظ بكثير من الإشارات والتعليقات التى بثها الشنتمرى فيه . وفى دار الكتب المصرية غير مخطوطة من هذا الشرح . وفى مكتبة أحمد الثالث بإستانبول مخطوطة للديوان بشرح ابن السكيت وكذلك فى مكتبة فيض الله مخطوطة أخرى له بشرح الخطيب التبريزى . والمخطوطتان جميعاً مصورتان بمعهد إحياء المخطوطات بالجامعة العربية .

وسنعتمد فى دراستنا للشاعر على شرح الشنتمرى ، لأنه يحتفظ لنا برواية الأصمعى أوثق رواة الشعر الجاهلى ، وهى تنتهى عنده بالقصيدة رقم ٢٢ إذ يقول الشنتمرى بعقبها : « كمل جميع ما رواه الأصمعى من شعر النابغة ، ونصل به قصائد متخيَّرة مما رواه غير الأصمعى إن شاء الله تعالى » وهى سبع قصائد رواها عن الطوسى ، وهو إنما يروى عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى ، ومعنى ذلك أن هذه القصائد مما أضافه الكوفيون إلى رواية الأصمعى أستاذ البصرة والبصريين . وكأن الأصمعى كان يشك فيها أو كان ينكرها ، ولذلك لم يثبتها فى روايته ، ومن ثَمَّ

لا نستطيع أن نعتمد عليها فى دراسة النابغة ، إنما نعتمد على ما رواه الأصمعى ، ونتخذه أساساً لبحث الشاعر وشعره .

على أننا لا نكاد نمضى فى رواية الأصمعى حتى نجدها فى حاجة إلى مناقشة ، فإن الأصمعى احتفظ فيها بقصيدته فى المتجردة : (أمن آل ميةَ رائحٌ أو مغتد) مع أنه كان لا يسندها كما يقول الشنتمرى . ومعنى ذلك أنها ضعيفة الرواية . ونحن لا نقرؤها حتى نجدها تتضمن غزلا مفحشاً ، وهو غزل لا يتفق وشخصية النابغة الوقور . ولو أن هذا اللون من الغزل كان دائراً فى شعر النابغة لأمكن أن نقبلها ، ولكنه يأتى شذوذاً فى هذه القصيدة ، ليدلل – كما مر فى غير هذا الموضع – على خبر مصنوع ، وضعه الرواة ليفسروا به السبب فى غضب النعمان بن المنذر على النابغة ، إذ جعلوه يتغزل بزوجه هذا الغزلَ الماجن الذى يندى له الجبين ، وكأنما ضاقت الدنيا على النابغة فلم يجد امرأة يتغزل بها هذا الغزل المفحش سوى زوج النعمان . ولو أن الرواة كانوا متعمقين فى فهم العصر الجاهلى وما كان فيه من منافسة شديدة بين المناذرة والغساسنة ، بل لو أنهم تعمقوا فى درس شعر النابغة لعرفوا أنه اضطر اضطراراً إلى مغادرة بلاط النعمان والتوجه إلى الغساسنة حتى يفك أسرى قومه عندهم عقب معارك رجحت فيها كفة الغساسنة ، بل لقد هزموهم هزيمة منكرة . و بذلك فقد النعمان داعيته فى ذبيان ، وغضب عليه غضباً شديداً . وما زال النابغة عندهم ، ليرد كيدهم عن قومه ، حتى إذا دار الزمن وتوفى خصما ذبيان من الغساسنة، وهما عمرو وأخوه النعمان، رأى النابغة أن يعود إلى بلاط النعمان بن المنذر ، لا خوفاً على نفسه كما يقول الرواة ، بل خوفاً من تأليبه القبائل على قبيلته . فالموقف كله كان موقفاً سياسيًّا، ولم يكن موقفاً شخصيًّا، ولذلك كنا نرد قصيدة المتجردة ، كما نرد كل ما يتصل بقصة هرب النابغة من النعمان ورجوعه إليه حين علم بمرضه ، ومن ثَمَّ كنا نشك فى قصيدته الرائية التى يقول فيها :

ألم تر خير الناس أصبح نَعْشُهُ على فتيةٍ قد جاوز الحىَّ سائرا
ونحن لديه نسأل الله خُلْدَه يردُّ لنا مَلْكًا وللأرض عامرا

فإن الرواة وضعوها وضعاً، ليصوروا لنا النعمان عليلا ، ونفس أسلوبها وما فى نهايتها من دعاء يدلان على أنها إسلامية، ومن ثَمَّ ننكرها كما ننكر مقطوعته التى

تتصل بمرض النعمان والتى يتوجه فيها إلى حاجبه عصام قائلا فى مطلعها :

أَلم أقسم عليك لتخبرنِّى أمحمولٌ على النَّعْش الهمامُ

وأيضاً فإننا نشك فى قصيدته :

لعمرك ما خشيتُ على يزيدٍ من الفخر المضلَّلِ ما أتانى

لأن الرواة يقولون إنه هجا بها يزيد بن عمرو بن الصعق الكلابى حين أصاب إبلا للنعمان ، وكلاب عشيرة من عشائر بنى عامر ، وهى قيسية مضرية ، ومع ذلك نجد النابغة يدعوه فيها يمنيًّا إذ يقول فى نهايتها : (ولكن لا أمانة للبيان) وما كان ليضل عنه أنه مضرى لا يمنى ، وكأنما القافية أعوزت فى البيت منتحله ، بل منتحل القصيدة فدعاه يمانيًّا ونسبه إلى اليمن . ومن القصائد التى جاءت فى رواية الأصمعى ويملؤنا الشك فيها قصيدته :

بانتْ سعادُ وأمسى حَبْلُها انْجذَمَا واحتلَّتِ الشَّرْعَ فالأَجزاعَ من إضَما

لأنها نسيب خالص ، ولأن بها روحاً إسلامية تتضح فى قوله مخاطباً صاحبته :

حَيَّاك ربى فإنا لا يحلُّ لنا لَهْوُ النساء وإن الدِّين قد عَزما[1]

مُشَمِّرين على خُوصٍ مزنَّمةٍ نرجو الإله ونرجو البِرَّ والطَّعَمَا[2]

وإذن فنحن ننكر خمس قصائد فى رواية الأصمعى ونبقى على سبع عشرة ، ومع إبقائنا عليها لا نُخْلِيها من بعض أبيات أُدْخلت فى روايتها ، فمن ذلك قصيدته العينية التى يعتذر فيها للنعمان ، فإن الرواة أدخلوا فيها خمسة أبيات تمضى على هذا النحو :

لعمرى وما عمرى علىَّ بهيِّنٍ لقد نطقتْ بُطْلاً علىَّ الأَقارعُ[3]

أقارعُ عوفٍ لا أحاول غيرها وجوهَ قرودٍ تبتغى من تُجادع[4]

أتاك امرؤٌ مستبطن لىَ بِغْضَةً له من عدوٍّ مثل ذلك شافع

(١) الدين هنا : الحج . يريد أنهم عزموا عليه . فهو من باب القلب فى التعبير .

(٢) مشمرين : جادين . الخوص : الإبل غائرة العيون . مزنمة : مشدودة بأزمتها ورحالها . الطعم هنا : الرزق .

(٣) الأقارع : بنو قريع بن عوف .

(٤) تجادع : تشاتم . ولفظ وجوه منصوب على الذم .

أتاك بقولٍ هَلْهلِ النَّسْجِ كاذبٍ ولم يأْتِ بالحق الذى هو ناصعُ
أتاك بقولٍ لم أكن لأَقوله ولو كُبِلتْ فى ساعدىَّ الجَوامع (١)

وإنما أدخلوا هذه الأبيات ليشيروا بها إلى ما قالوه من أن السبب فى هربه من النعمان أن مرة بن سعد بن قريع وعبد قيس بن خُفاف نظما هجاء فى النعمان على لسانه ، فلما علم به فرّ على وجهه . ونحن ننفى هذه الأبيات عن القصيدة ونبقى على ما عداها ونعده صحيحاً . ونقف نفس الموقف من هذه الأبيات التى جاءت فى معلقته والتى يقول فيها عن النعمان بن المنذر :

ولا أرى فاعلاً فى الناس يُشْبِهه ولا أحاشى من الأَقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإله له قم فى البريَّة فاحدُدْها عن الفَنَد (٢)
وخَيِّس الجِنَّ إنى قد أذنتُ لهم يَبْنون تَدْمُرَ بالصُّفَّاح والعَمَدِ (٣)
فمن أطاعك فانفعْه بطاعتِه كما أطاعك وادْلُلْه على الرَّشَدِ
ومن عصاك فعاقِبْهُ معاقبةً تَنْهَى الظلومَ ولا تقعد على ضَمَدِ (٤)
إلا لمثلك أو من أنت سابقُه سَبْقَ الجواد إذا استولى على الأَمد (٥)

وواضح أنه يسترسل فى الحديث عن سليمان كأنه من أهل الكتب السماوية ، وقد كان وثنياً على مذهب قومه ، وبحق رأى طه حسين أن الأبيات ُأقحمت على المعلقة إقحاماً (٦) . وقد نسبت إلى النابغة أبيات فى غير رواية الأصمعى يقول فيها معتذراً إلى النعمان :

أتيتك عارياً خَلَقاً ثيابى على خَوْفٍ تُظَنُّ بىَ الظنونُ
فألفيتُ الأَمانةَ لم تَخُنْها كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

---

(١) كبلت : وضعت . الجوامع : الأغلال .
(٢) احددها : امنعها . الفند : الخطأ فى القول والفعل .
(٣) خيس : ذلل . تدمر : مدينة الزباء فى بادية الشام . الصفاح : حجارة عراض . العمد : أساطين الرخام .
(٤) الضمد : الغيظ وشدة الغضب .
(٥) الأمد : الغاية التى تجرى إليها الخيل . والبيت معلق بما قبله أى لا تقعد على غيظ إلا لمن هو مثلك فى الناس أو قريب منك .
(٦) فى الأدب الجاهلى ص ٣٣٧ وما بعدها .

ونفى الجاحظ[١] وابن سلام[٢] أن يكون النابغة قد قال هذا الشعر ، وكأنهما أحسّا ما أحسه طه حسين إزاء الأبيات السالفة وأنها خليقة بأن تكون مصنوعة . ومثلها فى المعلقة الأبيات التالية التى تصوّر فطنة اليمامة وعدّها الدقيق لحمام طائر فى مضيق من الهواء يجعله يشتد فى طيرانه و يسرع إسراعاً :

احْكُمْ كحكم فتاة الحىّ إذ نظرتْ ... إلى حَمام شِرَاعٍ وارد الثَّمَدِ[٣]
يحفُّه جانبا نيقٍ وتُتْبعه ... مثلَ الزجاجة لم تُكْحَل من الرَّمدِ[٤]
قالتْ ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... إلى حمامتنا ونِصْفُه فقَدِ[٥]
فحسَّبوه فألفوه كما حسبتْ ... تسعاً وتسعين لم تَنْقُص ولم تَزِدِ
فكمَّلتْ مائةً فيها حمامتُها ... وأسرعتْ حِسْبَةً فى ذلك العدد

وهى أبيات واضحة الانتحال . ونحن بعد ذلك نصحح بقية المعلقة ، كما نصحح قصائده ومقطوعاته الأخرى التى جاءت فى رواية الأصمعى باستثناء ما اتهمناه .

٤

شعره

قرن ابن سلام النابغة إلى امرئ القيس وزهير والأعشى . فهؤلاء الأربعة فى رأيه هم المقدمون على سائر الشعراء فى الجاهلية[٦] . وتبعه الرواة والنقاد يؤمنون بهذا الحكم ، وأن الأربعة حقّاً هم المجلّون السابقون فى اقتدارهم على تصريف الشعر والنظم فى فنونه المختلفة .

---

(١) الحيوان ٢/٢٤٦ .
(٢) طبقات فحول الشعراء (طبع دار المعارف) ص ٤٩ – ٥٠ .
(٣) فتاة الحى : زرقاء اليمامة . شراع : مجتمعة . الثمد : الماء القليل .
(٤) يحفه : يحيط به . نيق : جبل . وجعل الحمام يمر فى جانبى نيق لأنه إذا مر فى مضيق من الهواء كان أسرع منه إذا اتسع عليه الفضاء. وشبه عين زرقاء اليمامة بالزجاجة فى صفائها . لم تكحل من الرمد : لم يصبها رمد فتكحل منه .
(٥) قد : حسب .
(٦) انظر طبقات فحول الشعراء ص ٤٣ وما بعدها .

وإذا استعرضنا دواوينهم جميعاً وجدنا النابغة يقرب فى ذوقه من أوس بن حجر وزهير ومدرستهما التى اشتهرت عند القدماء بالتجويد والتنقيح ، فهو لا يقبل كل ما يفد على خاطره ، بل لا يزال يثقفه ويصقل فيه حتى يستوى له اللفظ المونق والديباجة الجزلة . وقد أتيح له أن يعيش فى بيئتين متحضرتين هما الحيرة و بلاط الغساسنة . فرقّ ذوقه وسهل منطقه ولفظه . وإن كان لم ينس البادية ولغتها وغرابة هذه اللغة .

وقد وقف القدماء طويلا عند إجادته لفنى المديح والاعتذار . غير أنهم عادوا فقالوا إنه أحد الأشراف الذين غضّ الشعر منهم ، فإنه مدح الملوك وقبل صلتهم ونوالهم ، وكان فى غنى عن هذا القبول . « قيل لأبى عمرو بن العلاء : أفمن مخافة النعمان بن المنذر امتدحه النابغة وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك؟ فقال : لا ، لعمر الله ما لمخافته فعل . إن كان لآمنا من أن يوجّه النعمان له جيشاً ، وما كانت عشيرته لتسلمه لأول وهلة ، ولكنه رغب فى عطاياه وعصافيره (إبله) وكان النابغة يأكل ويشرب فى آنية الفضة والذهب من عطايا النعمان وأبيه وجده ، لا يستعمل غير ذلك[1] » .

ويبعد فى رأينا أن يكون قد وفد على أبى النعمان وجده كما يقول أبو عمرو بن العلاء وغيره من الرواة فإن ديوانه برواية الأصمعى يخلو من مديحهما . أما أن تكسبه بالشعر وأخذه نوال المناذرة وكذلك الغساسنة قد غضّ منه وأنزله من مرتبة شرفه فغير صحيح ، لأن وفوده عليهما لم يكن القصد منه التكسب ، وإنما كان القصد رعاية مصالح قبيلته عندهما كما قدمنا . فقد كان سفيرها فى بلاطهما . وحقّاً إنه يبالغ فى مديحه واعتذاره ، ولكنها مبالغة لا تنتهى إلى ذلة نفس ، بل هى المبالغة التى تأتى من أنه يتحدث إلى أمراء كان لهم سلطان كبير على القبائل العربية ، ويريد أن يصلح ما فسد من قلوبهم عليه وعلى قبيلته .

وليس شعره جميعه مديحاً واعتذاراً فقد رثى النعمان الغسانى ، وهو يقدم لرثائه ومديحه واعتذاراته بالنسيب ووصف ناقته ، وقد يخرج من ذلك إلى وصف الحيوان فى الصحراء وصيده . وأيضاً فى شعره قصائد ومقطوعات تتصل بأحداث قبيلته

---

(١) أغانى ١١/٢٩ وما بعدها .

وأحلافها من بنى أسد وأعدائها من بنى عامر ، وبعبارة أخرى فى شعره فخر وهجاء ، وفى تضاعيف ذلك كله نرى عنده أسراباً من الحكمة والتجربة الصادقة ، وما يدل على وفائه وصدق مودته .

ونحن لا نلمّ بمديحه للغساسنة حتى نؤمن حقًّا بأنه كان شاعراً بارعاً ، يعرف كيف يتخير ألفاظه وكيف ينوع فى معانيه وكيف يستتم صوره . وخير مدائحه فيهم قصيدته البائية ، وهو يستهلها بوصف طول الليل وما تجمع عليه فيه من الهموم ، يقول :

كِلِينى لهمٍّ يا أُميمةُ ناصبِ وليلٍ أقاسيه بطىءِ الكواكبِ[1]

تطاولَ حتى قلت ليس بمنقضٍ وليس الذى يَرْعَى النجومَ بآيبِ[2]

وصَدْرٍ أراح الليلُ عازبَ هَمِّهِ تضاعفَ فيه الحزنُ من كل جانب[3]

فهو محزون فى أول القصيدة يخاطب بنته أمامة ويشكو لها همومه وأشجانه لما وقع فى قبضة الغساسنة من أسرى قومه ، ونراه يصور طول الليل وهمّه فيه تصويراً بديعًا ، فالكواكب بطيئة لا تجرى ، حتى ليظن أن الصبح الذى يرعى النجوم بأضوائه ويحصدها حصداً لن يؤوب ، والليل يثقل على صدره بما يردّ عليه من موجات الهم والحزن . وهى براعة استهلال رائعة تدل دلالة بينة على أننا بإزاء شاعر يعرف كيف يجسّم معانيه وكيف يعبر عنها تعبيراً واضحاً مستقيما بالصور . وقد خرج من ذلك توًّا إلى ملح عمرو بن الحارث الغسانى وآبائه وعشيرته ، ووقف طويلا عند تصوير جيوشه وما تحقق من انتصارات مدوية ، وأطال فى هذا التصوير قائلا :

إذا ماغَزَوا بالجيش حَلَّق فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدى بعصائبِ[4]

يُصاحبْنَهم حتى يُغِرْنَ مُغارَهم من الضَّاريات بالدماء الدوارب[5]

---

(١) كلينى : دعينى . ناصب : متعب . بطىء الكواكب : كناية عن أنها لا تغور ولا تمضى .

(٢) آيب : راجع . وأراد براعى النجوم الصباح .

(٣) أراح : رد . العازب : البعيد .

(٤) عصائب : جماعات .

(٥) الضاريات : المتعودات . الدوارب : المدربة .

obeikandi.com

تراهن خَلْفَ القوم خُزْرًا عيونُها … جلوسَ الشيوخ فى ثياب المَرَانبِ (١)

جوانحَ قد أيقنَّ أنَّ قبيـله … إذا ما التقى الجمعان أولُ غالبِ (٢)

لهنَّ عليهم عادةٌ قد عرفْنها … إذا عُرِّض الخَطِّىُّ فوق الكواثبِ (٣)

على عارفاتٍ للطعان عوابسٍ … بهنَّ كلومٌ بين دامٍ وجالبِ (٤)

إذا استُنْزلوا عنهن للطِّعن أَرْقَلُوا … إلى الموت إرقالَ الجمال المَصَاعبِ (٥)

فهم يتساقون المنية بينهم … بأيديهم بيضٌ رقاقُ المضاربِ (٦)

يَطير فُضَاضاً بينها كلُّ قَوْنَسٍ … ويتبعها منهم فَرَاشُ الحواجبِ (٧)

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم … بهن فلولٌ من قِراع الكتائبِ (٨)

تُوُرِّثْنَ من أزمانِ يومِ حليمةٍ … إلى اليوم قد جُرِّبن كلَّ التجاربِ (٩)

تَقُدُّ السَّلوقىَّ المضاعَفَ نَسْجُهُ … وتوقد بالصُّفَّاح نارَ الحُباحبِ (١٠)

بضرب يُزيل الهام عن سَكناته … وطَعْنٍ كإيزاغ المخاضِ الضواربِ (١١)

وهو يبدأ تصويره بأن جماعات الطير من النسور والعقبان تتبع جيش الغساسنة ، تنتظر زادها من أشلاء قتلاهم وربما سبقه الأفوه بقوله :

وترى الطير على آثارنا … رأْىَ عينٍ ثِقَةً أن ستُمارُ (١٢)

(١) خزر العيون : جمع أخزر وهو الذى ينظر بمؤخر عينه . المرانب : ثياب سوداء .

(٢) جوانح : مائلات للوقوع .

(٣) الخطى : الرماح . الكواثب : القربوس .

(٤) عارفات : صابرات . كلوم : جروح . دام وجالب : مدم ومتجمد عليه الدم .

(٥) أرقلوا : أسرعوا . المصاعب : النافرة .

(٦) بيض : سيوف .

(٧) فضاضاً : متفرقاً . القونس : أعلى الرأس . فراش الحواجب : عظامها .

(٨) فلول : ثلوم . قراع : مضاربة .

(٩) يوم حليمة : معركة مشهورة انتصر فيها الحارث بن جبلة الغسانى على المنذر بن ماء السماء .

(١٠) السلوقى : الدرع المنسوبة إلى سلوق من أرض اليمن . تقد : تشق . الصفاح : الحجارة ويريد خوذ الجنود . الحباحب : ذباب له شعاع بالليل .

(١١) الهام : جمع هامة وهى الرأس . سكناته : حيث يسكن ويستقر . الإيزاغ : دفع الناقة بولها . المخاض : الحوامل .

(١٢) انظر ديوان الأفوه ص ١٣ . تمار : تعطى الميرة من لحوم القتلى .

obeikandi.com

غير أن النابغة فصَّل الصورة حتى يحكم المعنى ويكشفه كشفاً دقيقاً ، فالنسور والعقبان خزر العيون ، وهى تشبه فى ألوانها ثياب المرانب السوداء التى يلبسها الشيوخ ، وهى تسير خلفهم موقنة بأنها لابد أن تجد زادها من أعدائهم ، وأنها على وشك الوقوع على ما تريد من هذا الزاد ، وهى لذلك لا تزال جانحة ، عادة عرفتْها فيهم لا يخلفونها ولا يمطلونها . وقد أعجب القدماء طويلا بهذه الصورة عند النابغة ، فتعاور عليها الشعراء ، وكل منهم يحاول أن يثبت مهارته وقدرته[1]. ويمضى النابغة فيصور شجاعة الجيش ، وما على خيله من أثر للطعان وجروح بين مدم ومتجمد عليه الدم . ونلاحظ هنا الدقة فى الوصف ، وهى دقة استتبعت ضرباً من الطباق . وقد صورهم يتساقون كئوس المنية ، كناية عن جرأتهم فى الحرب واقتحامهم لأهوالها ، ثم صور كيف يثخنون فى أعدائهم ، ولم يلبث أن جاء بصورة طريفة ظاهرها ذم وباطنها ملح شديد ، فالغساسنة لا عيب فيهم إلا عيب واحد ، وهو ليس فى حقيقته عيباً ، بل هو مفخرة من مفاخرهم ، فسيوفهم مفللة من طول قراعها ومضاربتها للكتائب . ومثل هذا التعبير الذى سبق إليه يدل على أنه كان يدقق فى معانيه وألفاظه جميعاً . ولم ينس أن يشير إلى نصرهم القديم فى يوم حليمة الذى هُزم فيه المناذرة شر هزيمة ، حتى لقد قُتل المنذر بن ماء السماء فى ساحة المعركة . وقد جعل سيوفهم المفللة تشق الدروع المتينة وتمزق أصحابها تمزيقاً مطيحة برءوسهم ومرسلة شرراً لا ينقطع ضياؤه حتى لكأنه أشعة الحباحب ، وسيولا من الدماء كأنها إيزاغ المخاض . حتى إذا استوفى كل ما أراد من تصويرهم بالشجاعة فى ميادين الحروب انتقل يصورهم فى سلمهم متحدثاً عن شيمهم وشمائلهم ودينهم ونعيمهم ، يقول :

لهم شيمَةٌ لم يُعْطِها اللهُ غيرهم ... من الجود ، والأَحلامُ غَيْرُ عَوَازِبِ[2]

محلَّتُهم ذاتُ الإله ، ودينُهم ... قويمٌ فما يرجون غيرَ العواقب[3]

---

(١) انظر الصناعتين للعسكرى (طبعة الحلبى) ص ٢٢٥ والوساطة للجرجانى (طبعة الحلبى) ص ٢٧٤ .

(٢) الأحلام : العقول . عوازب : جمع عازب وهو الغائب .

(٣) محلتهم : منزلتهم ، ذات الإله : يقصد كنائسهم .

obeikandi.com

رقاقُ النِّعـال طيبٌ حُجُزاتُهمْ ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيْحان يوم السَّباسبِ(١)

تحيِّيهمُ بيضُ الولائدِ بينهم ... وأكْسيَةُ الإضْريجِ فوق المَشاجب(٢)

يصونون أجسادًا قديماً نَعيمُها ... بخالصة الأَرْدَانِ خُضْرِ المناكب(٣)

ولا يحسبون الخير لا شرَّ بعده ... ولا يحسبون الشرَّ ضربةَ لازب(٤)

حَبَوْتُ بها غَسَّانَ إذ كنتُ لاحقاً ... بقومى وإذ أَعْيَتْ علىَّ مذاهبي(٥)

وهو فى أول الأبيات يصفهم بالجود ورجاحة الأحلام والعقول ، ثم يأخذ فى وصفهم بأنهم متدينون بدين قويم ، وكان الغساسنة نصارى كما مر بنا فى غير هذا الموضع . ويقول إن منازلهم تحل بأمكنة مقدسة ، ولعله يريد كنائسهم ، ولا يلبث أن يقول إنهم يخشون العواقب ، وكأنه يستحثهم على أن يفكوا أسرى قبيلته من أغلالهم . وتحوَّل يصفهم بالترف وما كانوا فيه من رفاهة العيش ، فهم رقاق النعال ، وهم أعفاء ، يحيّون بالأزهار فى عيد السّباسب أو يوم الشَّعانين ،وهو من أعياد النصارى ، وهم منعمون يلبسون ثياباً بيض المناكب خضر الأكمام . وعاد يستعطفهم على قومه وأنهم إذا كانوا أهاجوهم واستتبع ذلك شرًّا وبلاء فإن فى الغساسنة خيراً كثيراً . ولم يلبث أن صرح بما جاء من أجله ، فهو إنما يمدح الغساسنة باسم قومه ، وقد ضاقت عليه الدنيا بما رَحُبَتْ بسبب من أُسِرَ منهم عند ممدوحيه ،وكأنه يهيب بهم أن يردوا إليهم حريتهم ، وردوها فعلا لما بهرهم به النابغة من هذا المديح الرائع .

وواضح أن روعة هذا المديح ترجع إلى استيفاء النابغة لمعانيه وعرضها فى معارض بديعة من اللفظ الواضح الجزل ومن الصور المونقة الدقيقة . وقد نفذ فى أثناء ذلك إلى معان حضرية جديدة ، إذ صور دينهم وترفهم وما هم فيه من نعيم . وهو فى ذلك يختلف عن شعراء البادية أمثال زهير فى مديحه ، إذ كانوا لا يعرفون هذه المعانى ولا تلم بخواطرهم ، أما هو فعاش أغلب أيامه فى الحيرة وفى بلاط الغساسنة ،

---

(١) الحجزات : معاقد الثياب . طيب حجزاتهم : كناية عن عفتهم .

(٢) الولائد: الجوارى والإماء . الإضريج : الحرير الأحمر . المشاجب : جمع مشجب وهو أعواد تعلق عليها الثياب .

(٣) الأردان : الأكمام . وخلوصها : نصوع بياضها .

(٤) لازب : لازم .

(٥) بها : يريد قصيدته . أعيت مذاهبه عليه : ضاقت وسدت .

obeikandl.com

فكان طبيعيًّا أن يختلف ذوقه عن ذوق البدو وأن يأتى بمثل هذه المعانى التى تروق ممدوحيه من الأمراء .

وإذا كان النابغة يتفوق فى المديح تفوقاً ظاهراً فإنه كذلك يتفوق فى الاعتذار ، وكأن ذوقه الحضرى هو الذى أعدّه لهذا التفوق ، إذ نحس فيه رقة فى اللهجة وإلحاحاً فى التلطف محاولا أن يزيل من نفس النعمان بن المنذر ظنه السيئ فيه. وقد استعان بموهبته فى اختراع الصور والمعانى والتدقيق فيها ، مد بجاً فى ذلك قصائد طوالا تُعَدُّ من أروع ما خلّفه العصر الجاهلى لا لطولها فحسب ، بل لما فيها من صدق اللهجة وسهولة اللفظ وحسن ديباجته . وقد أسعفه فى ذلك ذوقه الحضرى الذى خلصه من خشونة البدو ومن الأنفة الجامحة ، فإذا ذنبه يكبر فى نفسه ، وإذا هو يحس كأنه أتى جريرة لا تغتفر ، فإنى يقدّم للنعمان المعاذير متخذاً إليه كل ما يستطيع من البراهين ومن سبل التلطف والملاينة . وقد يؤديه ذلك إلى غير قليل من التذلل والاسترحام ، حفاظاً على صداقته القديمة له واستبقاء لوده ، وهو حسن تأتٍّ لاصغار نفس ولا مهانة ، ولا طلباً لعصافير النعمان كما قال أبو عمرو بن العلاء ، وإنما هو الذوق الحضارى الذى اكتسبه النابغة والذى جعله يختلف عن معاصريه ويقترب من ذوق العباسيين المتحضرين ، حين يشعرون بضخم ذنبهم لدى الممدوحين ويأخذون فى التنصل منه ، وتقديم شتى المعاذير . وهو يخلط اعتذاره بمديح النعمان والثناء عليه ، وارجعْ إلى المعلقة فستراه يستهلها بوصف أطلال دارمية ، ثم وصف ناقته التى قطع بها الصحراء إلى مقصده مفتنًّا فى تصويرها ، ومشبهاً لها بثور تناضله كلاب الصيد ، حتى إذا انتهت به إلى النعمان أخذ يمدحه بكرمه الفياض وما وهبه من قطعان الإبل والخيل ومن الجوارى المنعّمات ، ثم مضى يستعطفه قائلا :

فلا لعمرُ الذى مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ ... وما هُرِيقَ على الأَنصابِ من حَسَدِ[1]

والمؤمنِ العائذاتِ الطير تمسحها ... رُكْبَانُ مكَّةَ بين الغَيْل والسَّعَدِ[2]

(١) مسحت : لمست ألتمس البركة . هريق : سال . الجسد : الدم . الأنصاب : الحجارة التى كانوا يذبحون عليها قرابينهم للآلهة .

(٢) المؤمن : الذى آمنها من الخوف . العائذات : اللاجئات إلى الحرم . تمسحها الركبان : يريد أنها تمسح عليها ولا تهيجها بصيد . الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى .

ما قلتُ من سَيِّىءٍ مما أُتيتَ بهِ ... إذنْ فلا رفعتْ سَوْطى إلَىَّ يَدى

إلا مقـــالةَ أقوامٍ شقيتُ بها ... كانت مقالتهمْ قَرْعاً على الكَبِدِ(١)

إذنْ فعاقبنى ربى معـــاقبةً ... قَرَّتْ بها عَيْنُ منيأْتيك بالفَنَدِ(٢)

أنبئتُ أن أبا قابوسَ أو عـــدنى ... ولا قَرَار على زَأْرٍ من الأسد(٣)

مهلا فـــداءٌ لك الأقوامُ كلُّهمُ ... وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ(٤)

لا تَقْذِفَنِّى برُكْنٍ لا كِفاء له ... وَإِنْ تَأَثَّفك الأعداءُ بالرِّفَدِ(٥)

وواضح أنه يقسم له بأيمانه الوثنية المغلظة أنه برىء مما يتَّهم به من غدر ، ويستنزل غضب ربه عليه إن كان غير صادق ، ولتشلّ يده إن كان ما يقول الوشاة صحيحاً . ولا يلبث أن يصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقرته وبطشه ، ويمثله أسداً جائعاً يزأر ، وقد وقع منه موقع الفريسة . وسرعان ما يعود إلى الاستعطاف ، فالناس جميعاً من غساسنة وغير غساسنة فداء النعمان ، بل إنه ليفديه بماله وولده ، ويقول له لا ترمنى بما لا أطيق منك ، وأنت الذى لا يستطيع الأعداء مهما تآزروا أن يثبتوا له . ويخرج من ذلك إلى مديحه ، ثم يعود إلى استعطافه فيقول :

فما الفُرات إذا هبَّ الرياحُ لَهُ ... تَرْمى أواذيُّه العِبْرين بالزَّبَدِ(٦)

يمـــدُّه كلُّ وادٍ مُتْرَعٍ لَجِبٍ ... فيه رُكامٌ من اليَنْبُوتِ والخَضَدِ(٧)

يَظَلُّ من خَوْفه المَلَّاحُ مُعْتَصِماً ... بالخَيْزُرانَةِ بعد الأَيْنِ والنَّجَدِ(٨)

يوماً بأَجْوَدَ منه سَيْبَ نافلة ... ولا يحولُ عطاءُ اليوم دون غَدِ(٩)

---

(١) القرع : الضرب .
(٢) الفند : الكذب .
(٣) أبو قابوس : النعمان بن المنذر .
(٤) أثمر : أنمى وأجمع .
(٥) الكفاء : النظير والمثل . تأثف : تجمع . الرفد : الجماعات من الناس .
(٦) أواذيه : أمواجه . العبرين : الشاطئين .
(٧) مترع : مملوء . لجب : ذو صوت شديد . الينبوت : شجر . الخضد : المحطم من الأشجار .
(٨) الخيزرانة : سكان السفينة . الأين : التعب . النجد : الكرب .
(٩) سيب : عطاء . نافلة : زيادة . يريد أن عطاءه وفر .

هذا الثناءُ فإن تسمعْ به حَسَناً فلم أُعَرِّضْ ـ أبيتَ اللَّعْنَ ـ بالصَّفَدِ[١]

ها إنَّ ذِى عِذْرةً إلا تكنْ نَفَعَتْ فإن صاحبها مشارِكُ النَّكَدِ[٢]

وقد بدأ فشبهه بالفرات فى كرمه ، ثم أخذ يصف الفرات فى ارتفاع فيضانه ، وعمد إلى تفصيل الصورة ، حتى يبرزها وحتى يظهر مقدرته الفنية فى دقة التصوير ، فهو قد علت أمواجه ورمت شاطئيه بالزبد ، وهو ينساب حاملا ما يقتلعه من الأشجار والنباتات ، وإنه ليعصف بكل ما عليه حتى لنرى الملاح معتصما فى مركبه بسُكّانها يخشى الغرق . وقد نفى أن يكون الفرات فى فيضانه أكرم من النعمان وأكثر سَيْباً . ودائماً يحاول النابغة أن يخترع مثل هذه الصورة ، ليدل على براعته . ونراه يعود إلى استعطاف النعمان ، وأنه قدم له هذا الثناء لا يبغى به نواله ، وإنما يبغى رضاه ، وأنه إن لم يقبل اعتذاره ألقى به فى مهاوى النكد والهم . ومن بديع اعتذاراته قصيدته العينية ، وفيها يقول :

وَعِيدُ أبى قابوسَ فى غير كُنْهه أتانى ودونى راكسٌ فالضواجعُ[٣]

فبِتُّ كأنى ساورتْنى ضَئيلَةٌ من الرُّقش فى أنيابها السمُّ ناقع[٤]

يسهَّد من ليل التِّمامِ سَلِيمُها لحَلْى النِّساءِ فى يديه قَعاقعُ[٥]

تناذرها الرَّاقون من سوءِ سَمِّها تُطلِّقه طورًا ، وطورًا تُراجعُ[٦]

أتانى ـ أبيتَ اللَّعْن ـ أنك لُمْتَنى وتلك التى تَسْتَكُّ منها المسامع[٧]

---

(١) الصفد : العطاء . أبيت اللعن : تحية كانوا يحيون بها ملوكهم .

(٢) عذرة : اعتذار . مشارك النكد : حليف ثكد وهم .

(٣) فى غير كنهه : كنهه : حقيقته ، يريد على غير ذنب منه . راكس : واد فى منازل بنى أسد . الضواجع : منحنى الوادى .

(٤) ساورتنى : لدغتنى . ضئيلة : أفعى دقيقة الجسم . الرقش : جمع رقشاء ، وهى المنقطة نقطاً بيضاء وسوداء . ناقع : قاتل .

(٥) يسهد : يمنع من النوم . ليل التمام : أطول ليالى الشتاء . السليم : الملدوغ . قعاقع : أصوات . كانوا يجعلون الحلى فى يد الملدوغ اعتقاداً منهم بأنها تشفيه .

(٦) يقول من خبثها لا تجيب الراقى . بل مرة تجيب ومرة لا تجيب . تناذرها الراقون خوف بعضهم بعضاً منها .

(٧) تستك : تضيق .

مقالةَ أن قد قلتَ سوف أناله ... وذلك من تلقـــاء مثلك رائعُ

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً ... وهل يَأْثَمَنْ ذو أُمَّةٍ وهو طائع[1]

بمصطَحباتٍ من لَصَافٍ وثَبْرَةٍ ... يَزُرْنَ إلالاً ، سَيْرُهُنَّ التَّدَافُع[2]

سَمَاماً تُبارى الرِّيح خُوصاً عيونُها ... لهن رَذايا بالطريق ودائعُ[3]

عليهنَّ شُعْثٌ عامدون لِحَجِّهم ... فهنَّ كأَطراف الحَنِيِّ خَوَاضع[4]

لكلَّفتنى ذنب امرئٍ وتركْتَـــهُ ... كَذى العُرِّ يُكْوَى غيره وهْو راتع[5]

فإن كنتَ لاذو الضِّغْنِ عنى مكذِّبٌ ... ولا حَلِفى على الـــبراءة نافع

ولا أنا مأمونٌ بشىءٍ أقـــولُه ... وأنت بأَمرٍ لا محـــالة واقع

فإنك كالليل الذى هو مدركى ... وإن خِلتُ أن المُنْتَأَى عنك واسع[6]

خطاطيفُ حُجْنٌ فى حبالٍ متينةٍ ... تمدُّ بهـــا أَيْدٍ إليك نوازع[7]

أتوعِد عَبدًا لم يَخُنكَ أمانةً ... وتتركَ عَبدًا ظالماً وهو ضالع[8]

وأنتَ ربيعٌ يُنعِشُ الناسَ سَيْبُهُ ... وسَيْفٌ أُعيرتْه المنيـــةُ قاطع[9]

أَبى اللهُ إلا عَدْله ووفـــاءه ... فلا النكْرُ معروفٌ ولا العُرْفُ ضائعُ[10]

---

(١) أمة هنا : دين .

(٢) بمصطحبات : أقسم بالإبل التى تصطحب فى المسير إلى الحج . لصاف وثبرة : موضعان فى ديار تميم . إلال : جبل بعرفة . التدافع : العجلة .

(٣) سماما : طائر شديد الطيران شبه به الإبل فى سرعتها . خوصاً : غائرات من شدة السير وإجهاده . رذايا : جمع رذية وهى الساقطة إعياء من الإبل . ودائع : مستودعات فى الطريق . يريد ما سقط منهن إعياء فترك .

(٤) شعث : جمع أشعث وهو المغبر من طول السفر . الحنى : القسى . الخواضع : المتطامنة رءوسها من الأرض .

(٥) العر : الجرب . وكانوا يداوون الإبل منه بكيها .

(٦) المنتأى : المكان النائى البعيد .

(٧) مر شرحه .

(٨) ضالع : مائل عن الحق ، ويروى ظالع وهو الجائر المذنب .

(٩) الربيع هنا : الغيث . السيب : العطاء .

(١٠) النكر : المذكر . العرف : المعروف .

وتُسْقَى إذا ما شئتَ غَيرَ مُصَرَّدٍ بزوراءَ فى حافاتها المسك كانع[1]

وهو فى أول هذه الأبيات يقول له : إن وعيدك أتانى وأنا آمن فى قومى وبينى وبينك منازل بنى أسد ومَنْ وراءهم ، فألمت حفظاً للعهد وبت مسهداً ، كأنما لدغتنى أفعى ، وهى صورة بارعة ، وقد أخذ يدقق فيها حتى يجسم ألمه ، فهى أفعى من الرقش تستودع السم فى أنيابها الحادة ، فمن عضتْه لم يطف به النوم من شدة الألم ، وعلق عليه أهله الحلى والخلاخيل حتى يفيق ويبرأ . وهى من الأفاعى الخبيثة التى قلما أجابت الرقى ، وإن الرقاة والحاوين ليرهبونها ويتخوفون من أن يطأوا حِماها . ويصور النابغة للنعمان فزعه حين أتاه أنه يلومه ، ويحلف له بأيمانه الوثنية ، ويختار هنا الحلف بالإبل التى كانوا ينذرونها لآلهتهم ، ويقف ليعطينا صورة عن هذه الإبل ، فهى تقبل على مكة مسرعة سرعة السهام ، حتى لكأنها تبارى الريح ، وقد أُجهدت من السير وطول السفر ، حتى إن بعضها سقط فى الطريق إعياء ، فلم ينبعث ولم يستطع براحاً . وقد بقيت منها بقية عليها شعث مغبرون يقصدون الحج ، وقد أخذها النحول حتى لكأنها القسى الضامرة . وهذا اليمين العظيم يقسم به متنصلا مما سمع عنه من بعض الوشاة أنه انصرف إلى الغساسنة يمدحهم ويهجوه ، وكان حرياً به أن ينزل سخطه لا عليه ، وإنما على هذا الواشى وإلا فمثله ومثل من وسوس للنعمان مثل البعير السليم يكوى من الجرب ، والأجرب راتع بجانبه لا يصيبه كىّ ولا أذى . وهى صورة أخرى بارعة . ويقول إن كنت لا تكذب من يضطغن علىّ ولا تصدق يمينى ولا حلفى فما أحرانى بالرهبة منك والخوف من بطشك ، ويودع ذلك صورة رائعة ، إذ يتخيل النعمان كالليل ، لا مفر لشخص من أن يطبق عليه . وعاد إلى الاستعطاف فصور قصائده التى يرسل بها إليه ليلين قلبه عليه كأنها خطاطيف معوجة ثُبِّتت فى حبال متينة ، وأيدى النابغة تمد بها إليه ، تريد أن تظفر بعطفه ورضاه . ويصور له أمانته وأنه لا يخون عهده ، بينما من يختانون هذا العهد يقرِّبهم ويرعاهم ، ويختم اعتذاره إليه بمديحه والثناء عليه ، فهو غيث منعش لأوليائه وسيف مصلت على أعدائه ، وقد

---

(١) مصرد : من التصريد وهو الشرب دون الرى : زوراء : كأس طويلة من فضة كان النعمان يشرب فيها . كانع : لاصق .

براه الله لرعيته عادلا وفيًّا ، لايلقى المنكر بالمعروف ولا المعروف بالمنكر ، يجزى على الإساءة إساءة وعلى الإحسان إحساناً ، وانتهى بتمثيل ما هو فيه من نعيم ، فهو يشرب فى كأس مفضضة مُزِج ما فيها بالمسك والطيب . ومن رائع اعتذاراته إليه قوله :

أتانى – أبيتَ اللّعْنَ – أنك لُمْتَنى   وتلك التى أَهتمُّ منها وأَنْصَبُ[١]
فبِتُّ كأن العائداتِ فَرَشْنَنِى   هَرَاساً به يُعْلَى فِراشى ويُقْشَبُ[٢]
حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً   وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ
لئن كنتَ قد بُلِّغْتَ عنى خيانةً   لمبلغك الواشى أَغَشُّ وأَكْذَبُ
ولكننى كنت امرأً لىَ جانِبٌ   من الأَرض فيه مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ[٣]
ملوكٌ وإخوانٌ إذا ما أَتيتُهم   أُحكَّم فى أَموالهم وأقرَّبُ
كفعلك فى قومٍ أراك اصطنعتهم   فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
وإنَّك شمسٌ والملوك كواكبٌ   إذا طلعتْ لم يبد منهن كوكبُ
فلا تتركنِّى بالوعيد كأننى   إلى الناس مَطْلِىٌّ به القارُ أَجْرَبُ[٤]
ألم تر أن الله أعطاك سُورَةً   ترى كل مَلْكٍ دونها يَتَذَبْذَبُ[٥]
ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّه   على شَعَثٍ ،أىُّ الرجال المهذَّبُ[٦]
فإن أَكُ مظلوماً فعبدًا ظلمتَه   وإن تك ذا عُتْبَى فمثلُكَ يُعْتِبُ[٧]

وواضح أنه يصور نفسه فى أول هذه الأبيات حين بلغه لوم النعمان بمريض ،

(١) أنصب : أجهد جهداً شديداً .

(٢) الهراس : شجر كثير الشوك . العائدات : الزائرات فى المرض . فرشننى : بسطن لى . يقشب : يجدد .

(٣) جانب من الأرض : متسع . مستراد : يذهب فيه الإنسان كما يريد . كناية عن إكرام الغساسنة له فى ديارهم .

(٤) القار : القطران ، وكانوا يداوون به الإبل الجربى .

(٥) السورة : المنزلة . يتذبذب : يضطرب ولا يصل إليها .

(٦) شعث : فساد . تلمه : تجمعه وتضمه .

(٧) عتبى : رضا . يعتب : يعطى العتبى والرضا .

قد أخذته آلام المرض وأهله يسوون له فراشه رحمة به وعطفاً عليه . ويحلف له بأنه برىء مما اتهمه به الواشي ، إذ لا يزال يرعى أمانة عهده ، وكل ما هناك أنه ألم بديار الغساسنة ، فأكرموه وحكّموه فى أموالهم ، فوجب عليه أن يشكر لهم يدهم وصنيعهم كما يشكر النعمان من يرعاهم من الشعراء ويغدق عليهم من نواله . وهو بذلك يقيم الحجة على النعمان ، فليس هناك كفران لنعمته عليه ولا جحود لولائه ، وما يلبث أن يرفعه على جميع الملوك من غساسنة وغير غساسنة ، فهو كالشمس الساطعة وغيره من الملوك كالنجوم ، يتوارون فى ضيائه ومجده ، وهى صورة باهرة لاشك أنها تركت أثراً بليغاً فى نفس النعمان . وقد تلاها باستعطافه ، فصور له ماصبَّه عليه من غضب بالقار يُصَبُّ على الأجرب فيتحاماه الناس . ويعود إلى بيان منزلة صاحبه وأن غيره من الملوك لا يرتقون إلى مكانته ، بل يضطربون دون سمائه . ويقول له : هَبْ أن مديحى للغساسنة هفوة واعْفُ عنى ، فإن لكل شخص هفوة ، وأين الأخ الذى لا يهفو ولا يعثر ؟ ومثلك حرى بأن لا يظلم أصفياءه ومن يخلصون له الولاء ، فإن ظلمتنى قبلت ظلمك ، وإن أسدلت علىّ عفوك ورضاك فليس غريباً منك ، فمثلك يعتب ويصفح الصفح الجميل .

ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل دلالة بينة على براعة النابغة فى اعتذاره ومديحه جميعاً ، فقد كان يعرف كيف ينوّع معانيه وكيف يسلك إليها شعاباً لم يسلكها أحد من قبله . والذى لا ريب فيه أن باب الاعتذار والاستعطاف ضيق ، ولكنه عرف بمقدرته الخيالية كيف ينفذ منه إلى صور طريفة ومعانٍ دقيقة ، يقوده فى ذلك ذوقه الحضرى الذى نصَب أمام عينه اتصاله بالغساسنة ذنباً كبيراً وجرماً لا يغتفر فى حق النعمان بن المنذر ، وقد أخذ يتنصل من هذا الجرم تارة ويعظم فضيلة العفو عن المذنب تارة ثانية . وبذلك كان فاتحاً لباب الاعتذار على مصراعيه ، وعلى هَدْيه تبعه الشعراء فى العصور الإسلامية متخذين منه قُدْوتهم .

وإذا كنا أعْجبنا باعتذارات النابغة ومديحه فإننا نعجب أيضاً برثائه للنعمان بن الحارث الأصغر الغسانى ، وهو يستهله بالنسيب ثم يصف ناقته مشبهاً لها بحمار وحشى ، ويخرج من ذلك إلى الرثاء ، فيقول إنه أحزنه نعى النعمان وإن كان سَرَّ قيساً لما أثخن فيها بحروبه . وهو يعبّر بذلك عن وفائه واعترافه بالجميل ،

ومن ثَمَّ لا يشمت بموت النعمان كما شمتت ذبيان وغيرها من قبائل قيس ، بل إنه ليدعو على أعدائه أن لا يهنئوا بمصرعه ، ويحدثنا عن جيوشه وانتصاراتها فى القبائل . ويقف ليرد على من جهلوا شيمته من الحفاظ على العهد والضن بسابق الود ، فقـــد ظنوا أنه لن يرثى النعمان ولن يذكره ، ويقول كيف لا يذكره ، وقد حرك موته ما يشبه الداء العضال فى فؤاده ، ونحس أنه سَعَرَ قلبه وأشعل صدره بشعلة من الحزن لا تخبو . وما زال يبكيه متعزياً بأن الموت سنة الأحياء وأنه كأس دائر على الجميع ، حتى قال داعياً له ومترحماً عليه :

سَقَى الغَيْثُ قبراً بين بُصْرَى وجاسِمٍ ... بغَيْثٍ من الوَسْمِيِّ قطرٌ ووابلُ[1]

ولا زال ريحانٌ ومسكٌ وعَنْبَرٌ ... على منتهاه دِيمَةٌ ثم هاطِلُ[2]

ويُنْبِتُ حَوْذاناً وعَوْفاً مُنَوَّرا ... سأُتْبِعُهُ من خير ما قال قائل[3]

وهو يستمطر على قبره شآبيب الغيث ، ولا يكتفى بذلك بل يدعو له أن يظل قبره معطراً بالريحان والمسك والعنبر ، ولا تزال تمده الأمطار بما يُنْبِت عنده النباتات العاطرة من مثل الحوذان والعرف . وحقاً كان الشعراء حوله ومن قبله يستسقون السحاب لقبور مَنْ يفقدونهم ، ولكنه مدَّ أطناب الصورة بذوقه الحضرى وأضاف إليها الريحان والمسك والعنبر ، ودعا للأرض أن تُنبت من حول النعمان الأزهار والرياض . وهى صورة حضارية تقابل أختها التى مرت فى مديحه لأخيه عمرو .

وقد قدَّم لهذه المرثية كما قلنا بالنسيب ، وهو يقدم به لبعض اعتذاراته مؤتسياً بمن حوله من شعراء الجاهلية إذ كانوا يضعونه غالباً فى مقدمات قصائدهم ، وكأنهم يريدون أن يستوحوا المرأة شعرهم وقصيدهم . ومن نسيبه قوله فى فاتحة معلقته التى أودعها إحدى اعتذاراته :

يا دار مَيَّةَ بالعَلْياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالفُ الأَبَدِ[4]

وقفتُ فيها أُصَيْلاناً أُسائلُها ... عَيَّتْ جواباً وما بالرَّبْع من أَحَدِ[5]

---

(١) بصرى وجاسم : موضعان بالشام . الوسمى : أول المطر . وابل : غزير .

(٢) منتهاه : قبره . الديمه : المطر ليس فيه برق ولا رعد . الهاطل : المطر المتتابع .

(٣) الحوذان والعوف : نباتان طيبا الرائحة .

(٤) العلياء والسند : موضعان . أقوت : خلت . الأبد : الزمن .

(٥) أصيلانا : تصغير أصلان جمع أصيل أو لعله مصدر من أصيل على وزن غفران . عيت : عجزت .

إلا الأوارىَّ لَأْياً ما أُبيِّنها والنُّؤْىَ كالحَوْض بالمظلومة الجلَدِ[١]

رُدَّتْ عليه أَقاصيــه ولبَّدَهُ ضَرْبُ الوليدة بالمِسْحاة فى الثَّأَّدِ[٢]

خَلَّتْ سبيلَ أَتِىٍّ كان يحبسهُ ورفَّعتْه إلى السَّجْفين فالنَّضَدِ[٣]

أَمستْ خلاءً وأَمسى أَهلُها احْتَملوا أَخْنَى عليها الذى أَخنى على لُبَدِ[٤]

وهو يستهلها بنداء دار مية ولا يسمع رجعاً لندائه ولا ردًّا عليه، فقد خلت من سكانها وبارحوها منذ أمد طويل . ويقول إنه وقف بها وقت الأصيل يسائلها ولا من مجيب ، ويصف آثارها وما أبقى الزمن منها ، ويقول لم يبق منها إلا الأوتاد وإلا النؤى . ويطيل فى وصفه ليظهر قدرته الخيالية ، فقد حفرته جارية فى أرض صلبة ، وما زالت ترد أتربته على حوافيه ، باسطة طريقه إلى الخيام ليرد عنها سيول المطر . وقد أبدع فى تسمية الأرض التى لم تحفر بالمظلومة ، وهو أول من أعطاها هذا الاسم ، كأنه أحس إزاء الصخر الذى لا يُحرَثُ ولا يزرع بضرب من الظلم . وقد ختم نسيبه بإظهار هذه الدار التى رحل عنها أهلها بمظهر بال ، فقد جرَّت الأيام عليها أذيال البِلى والعفاء، كما جرَّتها من قبل على لُبد نَسْر لقمان المشهور بطول عمره وطول سلامته .

وواضح أن هذا النسيب فيه قدرة بارعة على الوصف ، ولكن ليس فيه عاطفة قوية ، وربما رجع ذلك إلى وقار النابغة، فهو ينسب بالمرأة لا ليصور حبًّا ، وإنما ليتمسك بهذا التقليد الثابت عند الجاهليين من افتتاح قصائدهم بوصف آثار الديار وما صنعت بها الأحداث . وقد أوشك فى مقدمته لاعتذاريته العينية أن يصور عواطفه وحبه ولكنه لم يكد يقول :

فكفكفتُ منى عبرةً فَرَدَدْتُها على النَّحْر منها مُستَهِلٌّ ودامعُ[٥]

(١) الأوارى : الأوتاد وما يربط بها من حبال . النؤى : حفرة حول الخيام تمنع عنها السيول . المظلومة : الأرض صعبة الحفر . الجلد : الصلبة .
(٢) لبده : جمعه . الوليدة : الأمة . الثأد : الثرى الندى .
(٣) خلت : شقت . الأتى : السيل . رفعته : أعلته . السجفان : مصراعا الستر فى الخيمة . النضد : المتاع .
(٤) أخنى عليها : أصابها بآفات الدهر . لبد : نسر للقمان يقولون إنه عمر طويلا .
(٥) كفكف الدمع : مسحه . المستهل : السائل . الدامع : الذى يترقرق فى العين قبل أن يسقط .

حتى أمسك نفسه ، وعاتبها على الصبوة وقد علا رأسه الشيب . ونراه فى معلقته يخرج من الغزل إلى وصف ناقته على عادة الشعراء من حوله ، فيصور قوة متنها وسرعة سيرها ومضائها ، ثم يأخذ فى تشبيهها بثور وحشى ، ويدفعه ذلك إلى وصف صائد وأكلبه وما نشب بينها وبين هذا الثور من عراك ، يقول :

مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ مَوْشِيٌّ أكارِعُهُ … طاوى المَصِيرِ كسيفِ الصَّيْقَلِ الفَرِدِ(١)

أَسْرَتْ عليه من الجوزاء سَارِيَةٌ … تُزْجِى الشمالُ عليه جامدَ البَرَدِ(٢)

فارتاع من صَوْتِ كَلَّابٍ فبات ،له … طَوْعُ الشَّوامِتِ من خَوْفٍ ومن صَرَدِ(٣)

فبثَّهنَّ عليـــهِ واستمرَّ بهِ … صُمْعَ الكعوبِ بَرِيَّاتٍ من الحَرَدِ(٤)

وكان ضُمْرَانُ منه حيث يُوزِعُهُ … طَعْنَ المُعارك عند المُحْجَرِ النَّجُدِ(٥)

شَكَّ الفَرِيصةَ بالمِدْرى فأَنفذها … طَعْنَ المُبَيْطِرِ إذ يَشْفِى من العَضَدِ(٦)

كأنه خارجاً من جَنْبِ صَفْحتهِ … سَفُّودُ شَرْبٍ نَسُوهُ عند مُفْتَأَدِ(٧)

فظلَّ يَعْجُمُ أعلى الرَّوْقِ مُنْقَبِضاً … فى حالكِ اللَّوْنِ صَدْقٍ غير ذى أَوَدِ(٨)

لما رأى واشِقٌ إقْعَاصَ صاحبهِ … ولا سبيل إلى عَقْلٍ ولا قَوَدِ(٩)

قالتْ له النفسُ إنى لا أرى طمعاً … وإنَّ مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ(١٠)

---

(١) وجرة : موضع بنجد . موشى أكارعه : مزينة قوائمه بالنقط . طاوى المصير : ضامر البطن . الصيقل : الحداد . الفرد : المسلول .

(٢) أسرت : جاءت ليلا . الجوزاء : برج فى السماء . سارية : سحابة . تزجى : تدفع . الشمال : ريح الشمال .

(٣) الشوامت : القوائم ويريد بطوعها إسراعها به . والصرد : البرد .

(٤) استمر به : اشتد به وقوى . صمع : ضوامر . بريات : بريئات . الحرد : العرج .

(٥) ضمران : اسم كلب للصائد . يوزعه : يغريه . المحجر : حمى القبيلة . النجد : الشجاع .

(٦) الفريصة : لحم الكتف . المدرى : القرن . المبيطر : معالج الحيوان . العضد : داء يلم بكتفها .

(٧) السفود : الحديدة التى يشوى عليها اللحم . نسوه : تركوه . مفتأد : موضع النار الذى يشوى فيه .

(٨) يعجم : يعلك . صدق : صادق فى الطعن . أود : عوج .

(٩) واشق : اسم كلب آخر للصائد . الإقعاص : القتل السريع . العقل : الدية . القود : القصاص .

(١٠) المولى : الناصر . يسلم هنا : يأسر .

obeikandi.com

وهو يبدأ برسم صورة هذا الثور ، فقوائمه مزينة بما فيها من نقط ، وهو ضامر كالسيف المسلول ، يجرى فى الصحراء خائفاً متوجساً لما تسقط عليه السماءُ من بَرَدٍ لا ينقطع . ولم يلبث أن ذُعر ذعراً شديداً إذ سمع صوت قانص يهتف بكلابه ، فأسرع فى جَرْيه ، ولحقه القانص فبعث عليه كلابه ، فاشتدت قوائمه وكعوبه مستخرجاً منها كل ما يبتغى من سرعة ، ولكن الكلاب لحقت به ، وكان أول ما لقيه منها ضمران ، ونشب بينهما صراع عنيف ، أهوى فيه الثور على خصمه بقرنيه ، ولم يلبث أن طعنه بأحدهما طعنة نجلاء ، نفذت إلى ظاهر صدره ، فكنت ترى الكلب من وهلته يعلك أعلى القرن وما خرج منه متقبضاً متألماً إلى أن لفظ أنفاسه . ولما رأى واشق ما أصاب أخاه وأنه لن يستطيع أن يعينه ولا أن يدرك بثأره أحجم عن لقاء الثور إبقاء على نفسه ، وقد أخذه اليأس من أن يصيد صاحبه كما كان يبغى ، فدون بغيته الموت والهلاك .

وهذا الوصف أكثر حيوية من النسيب السابق ، لما بثَّ النابغة فى الحيوان من حياة الإنسان وعواطفه وقلقه وطمعه ويأسه ، فالثور خائف يترقب ، والكلاب طامعة تتربص . وتنشب المعركة وكأنها معركة آدمية ، فالثور يطعن طعن الرجل المدافع عن عَرينه وحماه . ويُقْتل ضمران . وينظر أخوه واشق فيرى أن القصاص غير ممكن ، وتحدثه نفسه بأنه يطمع فى غير طائل ، وما يلبث أن ينصرف عن المعركة ، وقد قذفت به فى مهاوى اليأس والقنوط . ولا ينسى النابغة مهارته فى التصوير سواء من حيث تمثيل المنظر وتجسيمه أو من حيث التشبيهات وإدخالها فى نسيج الأبيات .

وفى ديوانه فخر وهجاء يتصل بشئون قبيلته البدوية وما كان بينها وبين بنى أسد من حِلْفٍ وبينها وبين بنى عامر من حرب ، وهو فى هذا القسم من شعره لا يتوفر على إحكامه وإظهار مهارته فيه شأنه فى المديح والاعتذار والرثاء ، وكأنه كان يمنعه وقاره أن يتمادى فيه ، وخاصة فى الهجاء ، واقرأ له هذه الأبيات فى عامر بن الطفيل وقد بلغه أنه يهجوه :

فإن يك عامرٌ قد قال جَهْلا فإن مَطِيَّةَ الجهل السِّبابُ

فَكُنْ كأَبيك أَو كأَبى بَرَاءٍ   توافقْك الحكومةُ والصوابُ[١]
ولا تذهبْ بحلمِك طامياتٌ   من الخُيَلاء ليس لهنَّ باب[٢]
وإنك سوف تَحْلُمُ أو تناهَى   إذا ما شِبْتَ أَو شاب الغُراب[٣]

وهى أبيات تخلو من الإقذاع فى الهجاء المعروف عند الجاهليين ، وهو يعمد فيها بذوقه الحضرى إلى التهكم به والسخرية منه ، فيصفه بالحمق ، ويصغّر إليه نفسه بتفضيل أبيه وعمه عليه ، وينهاه عن الخيلاء ، ويؤمله فى أنه سوف يحلم حين تتقدم به السن أو لعله لا يحلم أبداً . وواضح أن الشطر الثانى فى البيت الأول حكمة سائرة ، وتكثر هذه الحكم عند النابغة يأتى بها فى ثنايا شعره وقصيده ، فتكون شطراً كهذا الشطر ، وقد تكون بيتاً كالبيت الأخير من هذه الأبيات ، وفيما تمثلنا من شعره كثير منها ، ومن رائعها قوله :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمُّهُ   على شَعَثٍ ، أىُّ الرجال المهذَّبُ

ومما لا شك فيه أنه يدل بهذه الحكم على صدق نظرته ودقة حِسّه .

وجوانب كثيرة فى شعر النابغة تفصح عن مهارته فى صوغ القصيدة ونظمها ، سواء من حيث ألفاظه أو من حيث صوره ومعانيه ، أما من حيث الألفاظ فإنك لا تقع منها على لفظة نابية ، إنما تقع على الألفاظ المحكمة المستخدمة فى دلالاتها الدقيقة ، ولعل ذلك ما جعله يلتزم الألفاظ البدوية الغريبة حين يصف الديار والصحراء والحيوان الوحشى ، أما حين يمدح الملوك أو يرثيهم أو يعتذر إليهم فإنه يستخدم الألفاظ المأنوسة الجزلة الناعمة . وهذه البراعة عنده جعلت نقاد العصر العباسى يقولون : إنه « كان أحسن الجاهليين ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزلهم بيتاً[٤] » . على أنهم لم يلبثوا أن ادعوا عليه أنه كان يُقْوِى فى شعره محتجين على ذلك ببيت فى قصيدة المتجردة التى وُضعت عليه ، فقد جاء فيها بيت مرفوع الروى ، بينما رويها المطَّرد مكسور ، ورووا فى ذلك قصة ، هى أن النابغة قدم

(١) أبو براء : عامر بن مالك ملاعب الأسنة وهو عم عامر بن الطفيل .

(٢) طاميات : فائضات ومرتفعات . ليس لهن باب : لا مخرج منهن .

(٣) أو شاب الغراب : ضرب النابغة ذلك مثلا لعامر وأنه لن يحلم أبداً .

(٤) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ص ٤٦ وانظر الشعر والشعراء ١٠٨/١ .

يثرب ، فعاب عليه أهلها ذلك فى قصيدته المذكورة ، فلم يأبه لهم حتى أسمعوه إياه فى غناء ، ففطن إلى ما قالوا ولم يعد إلى ذلك[١] . ولكن القصيدة كما قدمنا مما نُحل على النابغة ، فحرى أن تكون القصة مثلها منحولة .

وإذا كان النابغة يُعنى بألفاظه عناية راعت السابقين فإنه يعنى كذلك بمعانيه ، وهى عناية أتاحت له كثرة الخواطر فى اعتذارياته على الرغم من ضيق هذا الموضوع ، وأيضاً فإنها أتاحت له ضرباً من ترتيب أفكاره ، ويتضح ذلك فى تنسيقه لموضوعات بعض قصائده ، إذ نراه يحسن التخلص من موضوع إلى موضوع ، وارجعْ إلى معلقته فإنك تراه يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خرُوجاً تسنده المناسبة ، حتى إذا أتم هذا الوصف قال :

فتلك تبلغنى النعمانَ إن له ... فضلاعلى الناس فى الأدنى وفى البعَدِ

وكذلك صنع فى اعتذاريته العينية فإنه خرج من النسيب إلى الاعتذار خروجاً متصلا ، إذ قال إنه كفَّ عن التشبيب والحب لشيبه ولما يشغله من هم ، هو غضب النعمان ، على هذه الشاكلة :

وقد حال همٌّ دون ذلك شاغلٌ ... مكان الشَّغاف تبتغيه الأصابعُ[٢]

وعيدُ أبى قابوس فى غير كُنْهِهِ ... أتانى ودونى راكسٌ فالضَّواجع

وهذه العناية البالغة بالمعانى والألفاظ كان يؤازرها عنده عنايته بالصور وما يُطوَى فيها من تشبيهات واستعارات ؛ ولا نلاحظ عنده الكثرة من الصور فحسب ، بل نلاحظ أيضاً القدرة على الابتكار ومفاجأة السامع بالأخيلة التى تخلب لُبّه ، وخاصة حين يتنصّل للنعمان بن المنذر من ذنبه ، وحين يصور بطشه بمن يغضب عليهم مستعطفاً مسترحماً . وكان له ذوق جيد فى اختيار صوره ومعانيه جميعاً ، وهو ذوق هذبته الحضارة التى نَعِمَ بها فى الحيرة وبلاط الغساسنة ، فإذا هو رقيق الحس رقة شديدة ، وإذا هو يأتى فى مديحه ورثائه بمعان حضارية غير مألوفة للجاهليين . وليس ذلك فحسب ، فإنه يفتح صفحة جديدة هى صفحة

(١) ابن سلام ص ٥٥ وما بعدها والأغانى (طبعة دار الكتب) ١١/١٠ .

(٢) الشغاف : حجاب القلب .

الاعتذاريات والاستعطافات وما يجرى فيها من الحس المرهف والشعور الدقيق ، وتسربت من ذلك أسراب فى جميع موضوعات شعره ، حتى الهجاء .

وإذا أضفنا إلى كل ذلك عند النابغة أخلاقه الرفيعة التى تتمثل فى وقاره وارتفاعه عن الدنيات ووفائه للأصدقاء والأحلاف وحفاظه الشديد على العهد وسابق الود أمكننا أن نفهم منزلته التى احتلها فى العصر الجاهلى وأسبابها ، إذ جعلوه محكّماً بين الشعراء فى عُكاظ كما قدمنا ، وكأنه فى رأيهم الشاعر الفذّ الذى لا يُشَقّ غباره والذى لا ينطق عن هوى أو عصبية ، ومن ثَمّ كان حكمه قاطعاً لا يقبل طعناً ولا نقضاً .